أقطاب الرواية المصرية

أبو عبد الله القضاعى

فقيه ومؤرخ وسياسى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

عنيت منذ أعوام بدراسة طائفة من أقطاب الرواية التاريخية عن مصر الاسلامية ودرس آثارهم، ما دُوِّن منها وما يبقى؛ وكتبت بالفعل عدة فصول عن ابن عبد الحكم والكندى وابن زولاق استقصيت فيها حياتهم وآثارهم؛ ثم تناولت بعد ذلك عدة أخرى من مؤرخى مصر الاسلامية فى عصور متأخرة، مثل النويرى والمقريزى وابن تغرى بردى والسخاوى وابن إياس؛ وقصدى بذلك أن أترجم لمؤرخى مصر الاسلامية كلما سنحت الفرص، وأن أستوعب مصادر التاريخ المصرى

والآن نستأنف هذا الدرس، ونخصص هذا الفصل لأستاذ من أساتذة الرواية المصرية، هو أبو عبد الله القضاعى، وهو مؤرخ وفقيه وسياسى معاً، عاش فى فترة من أدق الفترات التى جازتها مصر الاسلامية، وشهد الدولة الفاطمية فى ذروة القوة والعظمة، ثم شهدها تنحدر سراعاً إلى دور من الانحلال والتفكك يكاد يؤذن بذهابها، وشهد محنة من أشنع المحن التى عانتها مصر الاسلامية، وانتدب أيام المحنة ليكون سفيراً لأمته فى طلب العون والغوث؛ وكتب عن مصر الاسلامية وعن حوادث عصره آثاراً هامة، لم تصل للأسف كلها الينا، ولكن ما انتهى الينا منها عن يد المؤرخين المتأخرين يدل على أهميتها وقيمتها

وهو القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى الشافعى المصرى؛ ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى، فى عصر الحاكم بأمر الله، ودرس الحديث، والفقه على مذهب الشافعى وبرع فيه، وبرز فى التاريخ والأدب؛ وبدأ حياته العامة بتولى القضاء، ولبث يليه حيناً بالنيابة كلما خلا منصب قاضى القضاة بالوفاة أو العزل، ثم تولى التوقيع (أو العلامة) لأبى القاسم الجرجرائى المعروف بالأقطع[1] وزير الخليفة الظاهر لاعزاز الله ابن الحاكم بأمر الله، ثم وزير ولده المستنصر بالله من بعده. ولما توفى الوزير أبو القاسم (سنة ٤٣٦ هـ) تقلب القضاعى فى عدة وظائف ومهام رسمية؛ وكان المستنصر بالله يقربه ويثق بحكمته وحسن تصريفه للامور؛ وتجول القضاعى ودرس فى بغداد ومكة والشام؛ ووقف على أحوال الدول الاسلامية يومئذ، ومجرى السياسة فى القصور المختلفة، ونبوأ فى البلاط المصرى ذروة الثقة والنفوذ. ثم جاء ظرف عهد فيه إلى القضاعى بمهمة سياسية دقيقة. ذلك أن الأزمات والفتن الداخلية التى توالت على مصر فى عهد المستنصر بالله لبثت تتفاقم حتى انتهت بوقوع الغلاء والقحط؛ ثم كانت الطامة الكبرى بوقوع الوباء فى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٣ م)؛ وعانت مصر يومئذ آلاماً ومحناً مروعة. وتعرف هذه النكبة فى تاريخ مصر الاسلامية « بالشدة العظمى ». وقد بدأت كالعادة بالغلاء وندرة الأقوات، وكان بين مصر والدولة البيزنطية يومئذ علائق حسنة، فأرسل المستنصر بالله فى سنة ٤٤٦ هـ إلى امبراطور قسطنطينية، وهو يومئذ قسطنطين السابع، أن يمده بالغلال والمؤن؛ وكانت الدولة البيزنطية تواجه يومئذ خطر السلاجقة الذين أشرفوا على حدودها الشرقية وعاثوا فى آسيا الصغرى؛ وكانت ترى أن تقوى صداقتها وتحالفها مع مصر التى كانت تخشى غزواتها من الجنوب ومن البحر؛ فاستجاب قسطنطين لدعوة المستنصر، وتم الاتفاق على أن ترسل المؤن من قسطنطينية إلى مصر، وأعدت بالفعل لتلك الغاية مقادير وافرة من الغلال تقدرها الرواية الاسلامية بأربعمائة ألف أردب[2] ولكن قسطنطين السابع توفى قبل تنفيذ الاتفاق، وخلفته على عرش قسطنطينية الامبراطورة تيودورا، واشترطت لارسال المؤن إلى مصر شروطاً أباها المستنصر، ومنها أن يمدها بالجند لمحاربة السلاجقة؛ فانقطعت المفاوضات بين الفريقين، وسير المستنصر جيوشه إلى الحدود الشمالية، ونشبت بين الفريقين معارك انتصر فيها المصريون بادئ ذى بدء. ولكن الأسطول البيزنطى غزا مياه الشام، وهزم المصريين فى عدة مواقع؛ فكف

(١) سمى كذلك لأنه كان أقطع اليدين « قطعا بأمر الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٤ هـ

(٢) خطط المقريزى. بولاق. ج ١ ص ٣٣٥

المستنصر عن متابعة الحرب ، وعاد إلى المهادنة والمفاوضة ، وأرسل إلى بلاط قسطنطينية سفيراً مختاراً يسعى إلى عقد الصلح وتنظيم العلائق بين الفريقين

وكان ذلك السفير المصرى إلى بلاط القياصرة ، هو أبو عبد الله القضاعى الذى يحبوه المستنصر بثقته وتقديره . فقصد القضاعى إلى بيزنطية عن طريق الشام ؛ وتضع الرواية الاسلامية تاريخ هذه السفارة الشهيرة فى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ويقع هذا التاريخ فى عصر الامبراطورة تيودورا التى جلست على العرش سنة ١٠٥٤ م وتوفيت فى أغسطس سنة ١٠٥٧ م ؛ وعلى هذا فقد كانت سفارة المستنصر إلى الامبراطورة تيودورا . وهذا ما يذكره ابن ميسر مؤرخ مصر بوضوح فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ إذ يقول : « وفيها سير المستنصر ، فقبض على جميع ما فى كنيسة القيامة [1] ؛ وسبب ذلك أن أبا عبدالله القضاعى كان قد توجه من مصر برسالة إلى القسطنطينية ، فقدم إليها رسول طغرلبك يلتمس من ملكتها أن يصلى رسوله فى جامع قسطنطينية ، فأذنت له فى ذلك ؛ فدخل وصلى بجامعها ، وخطب للخليفة القائم ؛ فبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر فأخذ ما كان بقيامة ؛ وكان هذا من الأسباب الموجبة للفساد بين المصريين والروم » [2] بيد أن هنالك من جهة أخرى ما يدل على أن الجالس على عرش قسطنطينية وقت مقدم القضاعى إليها لم يكن الامبراطورة تيودورا ، وأن الذى استقبل السفير المصرى هو خلف تيودورا الامبراطور ميخائيل السادس (ستراتيو تيكوس) الذى تولى عرش قسطنطينية فى أغسطس سنة ١٠٥٧ م ؛ فقد نقل المقريزى فى كتابه « المقفى » فى ترجمة القضاعى ما يأتى : « وقال أبو بكر محمد بن سامع الصنوبرى ، سمعت القاضى أبا عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى يقول : لما دخلت على ملك الروم اليون ، رسولاً من قبل المستنصر بالله ، وأحضرت المائدة ، فلما رفعت جعلت ألتقط الفتات ؛ فأمر الفراش أن يحضر أخرى ، ففعل ؛ فقال لى الملك أصبت منه وإنك لم تشبع ؛ فقلت أنا والله مستكف ؛ فقال لى لم أكلت الفتات ؟ فقلت : بلغنى مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : من التقط ماسقط من المائدة برىء من الحمق والفقر ؛ فأمر الخازن فى الحال باحضار ألف دينار وإعطائها ؛ فقلت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستغنيت وبريت من الحمق » [1] ؛ وذكر المقريزى فى الخطط أيضاً مايؤيد هذه الرواية [2] . على أننا نستطيع أن نوفق بين الروايتين فنفترض أن القضاعى وصل إلى قسطنطينية فى أواخر عهد الأمبراطورة تيودورا ؛ واستمر فى أداء مهمته بعد وفاتها لدى الأمبراطور ميخائيل السادس ؛ ومكث حيناً بقسطنطينية ؛ ومما يؤيد طول مكث القضاعى بعاصمة القياصرة أنه عنى هنالك بالدرس وجمع المواد التاريخية عن المدينة وخططها [3] . أما مهمة السفير المصرى لدى البلاط البيزنطى فلم تحددها الرواية الاسلامية تحديداً واضحاً ، ولكنا نستنتج مما قدمنا من الظروف والحوادث أنها كانت تقوم على السعى فى إقناع البلاط البيزنطى بالتحالف مع مصر ضد السلاجقة ، وإعانة مصر بالأقوات والمؤن ، تنفيذاً للعهود التى قطعها قسطنطين السابع للمستنصر وتوفى قبل الوفاء بها

ولكن القضاعى أخفق فى مهمته . ذلك أن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة ، لأنهم كانوا يومئذ أشد خطراً على الدولة الشرقية من مصر ، وآثر القيصر أن يتعاقد مع رسول طغرلبك ؛ وبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر ، فرد المستنصر بالقبض على أحبار قمامة ومصادرة نفائسها ، واضطربت العلائق بين مصر وبيزنطية كرة أخرى ؛ وعاد القضاعى إلى مصر على أثر هذا الفشل ، ونستطيع أن نضع تاريخ عودته فى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أعنى بعد أن أنفق أكثر من عامين فى رحلته . ثم توفى القضاعى بعد ذلك ببضعة أعوام ، فى ١٦ ذى القعدة سنة ٤٥٤

— ٢ —

كتب القضاعى عدة مصنفات فى الفقه والتاريخ منها كتاب

(١) هى كنيسة بيت المقدس التى تعرف عند النصارى « بالقبر المقدس » أو قبر المسيح

(٢) ابن ميسر فى « أخبار مصر » فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ — وخطط المقريزى ج ١ ص ٣٣٥

(١) نقل ترجمة القضاعى هذه من النقطة المحفوظة بمكتبة ليدن من كتاب « المقفى » المستشرق كينج فى مقدمته للجزء الذى نشره من كتاب « تسمية أمراء مصر » للكندى (ص ٢٢ و ٢٣)

(٢) راجع الخطط ج ١ ص ٣٣٥

(٣) راجع طبقات الشافعية للسبكى فى ترجمة القضاعى — ج ٣ ص ٦٣

« الشهاب » وكتاب « مناقب الامام الشافعي وأخباره » وكتاب « الانباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء » وكتاب « المختار في ذكر الخطط والآثار » وكتاب « عيون المعارف » ، وقد دثر معظم هذه الآثار ، ولم يصلنا منها سوى كتاب « الشهاب » و « مسند الشهاب » أو (مسند الصحاب) وهما في الحديث ، وكلاهما بمكتبة الأسكوريال بمدريد[1] ؛ وانتهى الينا أيضاً ، كتاب « عيون المعارف » وهو على ما يصفه مؤلفه في مقدمته « موجز في ذكر الأنبياء وتاريخ الخلفاء وولايات الملوك والخلفاء إلى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة من الهجرة » ، وتوجد من عيون المعارف نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية[2] ، ولكنا نرتاب في أنها مختصر لكتاب أكبر ربما كان هو المعروف « بتاريخ القضاعي » وهو الذي يقتبس منه كثير من المؤرخين المتأخرين ، والظاهر أيضاً أن « عيون المعارف » و « الأنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء » هما اسمان لمؤلف واحد حسبما يبدو من مقدمة « عيون المعارف » المشار اليها

بيد أن أهم آثار القضاعي هو بلا ريب كتابه الشهير في الخطط وهو المسمى : « المختار في ذكر الخطط والآثار » ؛ ولم يصلنا هذا الأثر ، ولكن انتهت الينا منه على يد الكتاب والمؤرخين المتأخرين ، ولا سيما القلقشندي والمقريزي وابن تغرى بردى والسيوطي شذور كثيرة تدل على قيمته وأهميته ؛ وقد كان لمؤلف القضاعي في الخطط أهمية خاصة لأنه آخر رواية كتبت عن خطط مصر والقاهرة قبل أن تغير معالمها فترة الشدة والخراب التي نزلت بعصر أيام المستنصر بالله ، وقبل أن تبعث بعد ذلك خلقاً جديداً في معظم معالمها وصروحها ، وهي حقيقة ينوه بها المقريزي في مقدمة « الخطط » إذ يذكر كتاب القضاعي « المختار » ضمن مصادره ثم يقول : « ومات (أي القضاعي) في سنة سبع وخمسين واربعمائة[3] قبل سني الشدة فدثر أكثر ما ذكر ولم يبق إلا بلمع وموضع بلقع »[4] والظاهر مما نقل الينا من كتاب القضاعي أنه أثر ضخم تناول فيه خطط مصر وآثارها وتاريخها منذ الفتح الاسلامي بافاضة ، وأضاف اليه ما انتهت اليه أحوال القاهرة المعزية حتى منتصف القرن الخامس والظاهر أيضاً أن كتاب « المختار » إنما هو النعوت « بتاريخ القضاعي » لأن ما نقل الينا منه من الشذور يمتاز بافاضة واضحة ، ولا وجود له في الوجز المسمى « عيون المعارف »

وقد كان القضاعي ، كما يبدو من آثاره ، مؤرخاً دقيقاً ثقة ، يزن روايته ويمحصها ، وكانت روايته عن مصر الاسلامية ، ولا سيما عن حوادث عصره ، مستقى خصباً لكثير من المؤرخين المتأخرين ؛ وما زالت هذه الرواية ذائعة تتخذ مكانها بين مصادر التاريخ المصري حتى أواخر القرن التاسع حيث نرى السيوطي ينقل في حوادث فتح مصر عن كتاب « الخطط » للقضاعي مكتوباً بخطه[1] ، وفي ذلك ما يؤيد أيضاً أن الكتاب النعوت « بتاريخ القضاعي » إنما هو كتاب المختار في الخطط والآثار ؛ ومن بواعث الأسف أن يحتجب عنا هذا الأثر الهام بين مصادر التاريخ المصري ، ولا سيما بين مصادر العصر الفاطمي الأول ، الذي احتجبت عنا معظم الآثار الخاصة به ، والتي غدت كالحلقة المفقودة في مصادر تاريخ مصر الاسلامية[2]

(النقل ممنوع) محمد عبد الله عنان

(١) راجع فهرس مخطوطات الأسكوريال للأستاذ ليفي بروفنسال (ج ٢) رقم ٧٣٦ و٧٦٢ (كتاب الشهاب) ورقم ٧٥٢ (مسند الشهاب)

(٢) تحفظ هذه النسخة ضمن مجموعة مخطوطة رقم (١٧٢٩ تاريخ)

(٣) وهي رواية خاطئة ، لأن القضاعي توفي سنة ٤٥٤ هـ كما قدمنا

(٤) الخطط — ج ١ ص ٥

(١) حسن المحاضرة — ج ١ ص ٧٠

(٢) راجع في ترجمة القضاعي : ابن خلكان ج ١ ص ٥٨٥ — السبكي (طبقات الشافعية) ج ٣ ص ٦٣ — والمقريزي في المقفى (مقدمة كتاب الولاة طبعة كينج ص ٢٢ و ٢٣) وفي الخطط ج ١ ص ٥ و ٣٥٥ — والسيوطي في حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨ — وأخبار مصر لابن ميسر في حوادث سنتي ٤٤٧ و ٤٥٤

ظهر حديثاً :

في أصول الأدب

صفحات من الأدب الحي والآراء الجديدة

بقلم

أحمد حسن الزيات

يطلب من إدارة « الرسالة » ومن جميع المكاتب

وثمنه ١٢ قرشاً عدا أجرة البريد